ناظم حكمت في السجن

بقلم حنا مينه

« لم يكن ناظم يحب التحدث عن السنوات الطويلة والصعبة التي امضاها في السجون التركية . كان حديثه ، غالبا ، حول بعض ما رافق تلك السنوات من حوادث طريفة » (1) .

بهذه الكلمات القليلة والمعبرة ، ترسم فيرا توليكوفا ، زوجة ناظم حكمت السوفياتية ، الطبع الابي للشاعر الذي امضى ربع حياته في السجن ، ولم يسمح لنفسه ، بعد خروجه منه ، ان يتخذ من سنوات السجن مادة مباهاة وتفاخر . ظل وفيا لتلك الروح العالية التي تعتبر النضال في سبيل المستقبل واجبا ، والعذابات التي يتحملها المناضل خلال ذلك شيئا من طبيعة الاشياء ، وهذا هو الخلق الكريم للرجال الافذاذ الذين كانوا يعدون انفسهم ، في العملية النضالية ، شهداء احياء .

تضيف فيرا توليكوفا : « الآن ، اقلب كتابا وصل مؤخرا من تركيا يتحدث عنه . في الكتاب صورة لناظم اخذت له في السجن ، حيث كان واقفا عند جدار الزنزانة ، وقد تكور على نفسه بسبب البرد والهواء الشديد ، وكان يلبس معطفا طويلا باليا ، وحذاء دون رباط ، وهو يضم الى صدره قطة هزيلة ، بينما ارسل بصره بعيدا مفكرا » .

الصورة التي تتحدث عنها فيرا اخذت في سجن بروصه ، حيث امضى ناظم أطول سنوات حكمه ، وكتب منه الى زوجته بيرابيه قائلا : « لقد طال السجن هذه المرة : ثماني سنوات ! » ، وحيث وجه الى صديقه وزميله في القضية كمال طاهر كل تلك الرسائل التي جمعت ونشرت بعد وفاته ، والتي سنعرض لبعض منها في هذا القسم من الكتاب ، في محاولة لانارة جوانب من حياة الشاعر في السجن ، الحياة الحافلة التي قضاها وهو يناضل ، بالعمل وبالقلم ، لكي يكون جديرا بالرجال الذين هو في صفهم حسب تعبيره .

لقد تحدثت ، في القسم الاول من هذا الكتاب (2) ، عن قضية ناظم حكمت الشعرية ، وعن التطابق الخلاق بين القول والفعل عند شاعر كبير ، دفع ثمن هذا التطابق عن وعي ، وعرف كيف يأخذ الحياة بجد ، وكيف يصمد للعذاب في الموت البطيء ، وكيف ينتصر هو الاعزل الا من الايمان بقضيته والثقة بانتصارها ، على جلاديه الذين تسلحوا بكل أدوات القهر ، وتفننوا في وسائل التعذيب ، وتطلعوا بحقد فاشي رهيب الى قطف رأسه « كما يقطف رأس من اللفت » فلفقوا له التهم ، والقوه في غياهب السجون ، وتركوا حبل المشنقة يتدلى فوقه طويلا ، ثم عجزوا عن قتله ، وتراجعوا امام الضغط العالمي فاطلقوا سراحه ليهرب من تركيا ولا يعود اليها أبدا .. لا يعود حتى جثة في تابوت ، كي يرقد بمقبرة في احدى قرى الاناضول كما أوصى .

ان السجون التركية التي دخلت التاريخ مع الشاعر وقضيته ، قد كان عليها ، لو قدر لها أن تحس ، أن ترتجف هلعا من ادانة هذا التاريخ . ونحن الذين نقرأ قصة ناظم حكمت ، ونقشعر من هول ومن غضب ، نقرأ ، في الوقت ذاته ، قصة هذه السجون ، وكأننا نعيش فيها من الداخل ، مع انسان ماجد تعلم ، بقوة الارادة ، ان يتجاوز ظاهرة الاحتجاز الذهني بفضل نضال يومي واع ، وان يتصل بالعالم الخارجي ، عبر الكلمات التي صاغ منها أشعاره ، والكلمات التي انطوت عليها رسائله الكثيرة ، الى السجناء وغير السجناء ، والى الناس كل الناس الذين وهب عمره لاجل قضيتهم .

اعتقل ناظم لاول مرة عام ١٩٣٢ بتهمة كتابات ثورية على الجدران ولصق منشورات معادية للسلطة ، وجزاء هذه التهمة الاعدام . لكن ناظم يناضل ، وهو في السجن ، ضد محاولة الاغتيال المدبرة باسم القانون ، ويخوض نضالا بطوليا كي يفضح أعداءه ويثبت براءته ، وينجح في ٣١ ـ ١ ـ ١٩٣٥ بالخروج من السجن ، مشمولا بالعفو الصادر بمناسبة عيد الجمهورية .

وفي هذا العام يتزوج منور التي كان قد خطبها قبل دخوله السجن ، وستتعرف اليها ، في رسائله ، باسم بيرابيه ، ويصبح ولداها : محمد وسوزان ، بمثابة ولدين عزيزين له ، وكان ينادي ابنه محمد باسم « عجلي محمد » لان ناظم لم ينجب أطفالا ، وهو

---

(1) حكايات من حياة ناظم حكمت ، ترجمة عرفان عبد النافع ـ جريدة « البعث » السورية .

(2) هذا المقال هو فصل من كتاب يصدر للمؤلف هذا الشهر عن دار الآداب .

يعترف بذلك في رسالته المؤرخة في ٣ ـ ٣ ـ ١٩٤١ الى صديقه كمال طاهر قائلا : « انني لم أعرف الاستمرار البيولوجي .. لي بالفعل طفلان أحبهما كثيراً ، لكنهما بيولوجياً ليسا من صلبي » .

وقد ظهر منذ مدة كتاب يضم رسائل ناظم حكمت الى زوجته منور ، ونشر بعض الصحف أن بيرايبه هي غير منور (١) ، وان بيرايبه زوجة وداد عرفي ، الرجل المغامر الذي ابتعد عن زوجته وطفليه أربع سنوات ، قضاها في باريس والقاهرة ، حيث قام بتجارب سينمائية خائبة ، وان ناظم تزوجها ، ثم أحب في آخر أيام سجنه منور ، وتزوجها بعد أن طلق بيرايبه عام ١٩٥٠ ، وتستشهد هذه الصحف على ذلك برسالة من ناظم الى بيرايبه يقول فيها :

« ربما هذه آخر رسائلي اليك . أعرف انني لم أعطك حقك جزاء صبرك واخلاصك ، لم أكن زوجا مخلصا لك ، أعرف الآن انني لم أكن زوجا مخلصا لك ، أعرف الآن انني لم أعد زوجك ، ولا أخاك ، ولا طفلك الذي يحتاجك الى حد الموت . لقد خنتك كزوج ، لكنني كنت دائما صديقا مخلصا لك . أنت تطلبين مساعدتي بصفتي صديقا لك . مدي لي اذن يدك الصديقة يا بيرايبه ، زوريني يا بيرايبه . لتكن هذه الزيارة باية صفة كانت ، زوريني » .

« ألن تمدي يديك الى غريق يلفظ أنفاسه الاخيرة في بئر عميق ؟ » .

ان هذه الرسالة ، في رأيي ، لا تقدم أي دليل يثبت ان بيرايبه ليست منور ، فناظم الذي كان في السجن لم يكن يستطيع خيانة زوجه مع امرأة أخرى ، حتى لو أراد ذلك ، وسبب الرسالة يعود الى جفوة من تلك الجفوات التي كانت تقع بين الشاعر وبينها ، والتي أتى على ذكرها أورخان كمال في كتابه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » في السجن (٢) .

ومما يؤكد هذه الحقيقة كون منور هي أم محمد ، ابن ناظم الذي وجه اليه كثيرا من القصائد بعد خروجه من تركيا ، وان منور التي ظلت على حب ناظم الكبير ، هي التي ألهمته اشعارا خالدة ، تشكل كل شعره الغزلي تقريبا ، وان الفراق الذي وقع بينهما كان بعد خروج ناظم من تركيا ، حيث استوطن الاتحاد السوفياتي وتعرف بفيرا توليكوفا وتزوجها .

لقد أمضى ناظم ومنور ثلاث سنوات من الحياة المشتركة ، الملأى بالحب والفرح والكفاح ، امتدت بين فترتي سجنه الاولى والثانية . ففي عام ١٩٣٥ خرج من السجن وتزوج منور ، وكان يعمل كمترجم للافلام في استديو « لالا » ، لكن سعادتهما لم تطل ، فقد قبض على ناظم في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٨ ، بتهمة محاولة قلب نظام الحكم في تركيا وتعاونه مع بعض المتمردين في الاسطول ، وتحريضه لهم ، وظل في السجن الى عام ١٩٥٠ ، حيث انتزعته موجة الاحتجاج العالمية كما هو معروف ، واولاها لبقي في السجن ومات فيه ، لان الاحكام التي صدرت عليه تجاوزت مدتها نصف قرن ، وكانت تتوالى بتهم مختلفة .

ان هذا القسم من الكتاب سيتناول حياة ناظم حكمت في الفترة الثانية من سجنه ، التي امتدت اثني عشر عاما متواصلة ، وتنقل الشاعر خلالها بين السجون التركية المختلفة ، من استانبول الى نشافكيري الى بروصه ، حاملا خشبة صليبه ومرتفعا على المعنى الذي أراده أعداؤه ، ليعطي ، في صموده ، دلالة على المعنى الآخر ، الاكبر ، لما تمثله خشبة الصلب اذ هي راية مفاداة .

لقد قبض على الشمس بيدين اسطوريتين ، وانصهر بالحرارة المحيية فيهما ، معانقا في نسامه مصدر النور ، مانحا ، على نحو قلّ نظيره ، خصلات من أشعتها ، كي تنير ظلمات الزنزانات لاولئك الرجال ـ والنساء أيضا ـ الذين كانوا يدفعون من عذاباتهم مهرا غاليا لحرية الفكر وكرامة المبدأ .

وبمقدار ما كانت سنوات سجنه مريرة ، كانت مبدعة . انه يفهم ، حتى بعد اندحار الفاشية في الحرب العالمية الثانية ، ان فاشية جديدة ستظهر ، وان سجنه سيطول ، لذلك يوصي صديقه كمال طاهر بالعمل المفيد من داخل السجن . ورغم آلام المرض ، والابواب الحديدية الموصدة ، والجو الرصاصي الثقيل الذي يطالعه من النافذة ، والحر الشديد الخانق في الصيف ، ومرض ابنه محمد بالسل ، والتواطؤ على قتله بيد بعض السجناء ، فقد ظل متفائلا ، محبا للحياة ، مهتما بكل ما يدور من حوله في السجون التركية ، وما يدور خارجها في وطنه والعالم ، يكتب ويترجم وينظم الشعر ، ويساعد زملاءه السجناء ، وزوجته وولديها ، ويناضل ، عبر ظروف صعبة ومعقدة ، ضد الظلم الواقع عليه ، وضد « عدالة » خاطئة ، وضد كل ما يشوه الحياة ويجعلها تعيسة الى حد مريع .

ان اشعاره التي تستمد نسغها من روح شعبية ، وتجسد حلما شعبيا ، يزيدها وعيه عمقا ، ويكسبها مفهومه الجدلي بعدا انسانيا واجتماعيا ، وتاتي معرفته الواسعة بتاريخ بلاده ، وحكاياتها الشعبية ، واساطيرها ، وناسها الذين فهمهم على نحو أفضل في السجن ، يأتي كل ذلك ليغني قصائده ، ويجعلها قادرة على التوحيد بين الانسان والطبيعة ، وبين الذات الفردية في أدق خلجاتها ، والذات الجمعية في أخفى ، وأظهر ، منسرباتها وتطلعاتها البشرية ، وهذا ما جعل لشعره ذلك الوقع الساحر على سامعه ، حتى كان السجناء يبكون وهم يصغون اليه .

وقد استطاع ، بدقة ملاحظته ، وخبرته الطويلة بالسجن ، ومعاناته وحبه الكبير للانسانية ، أن يفهم الانسان على نحو شديد الشفافية ، شديد السبر ، بالغ الاهتمام بالمعطى الحي لمشاعره الدفينة تحت تراكمات الجهل والفقر والظروف المبهظة ، فكان يحاول ، في كل ما يعمل ، أن يكشف عن تلك المشاعر ، ويفجرها ، ويوجهها وجهة كفاحية واعية .

وسنجد ، من خلال أشعار ناظم حكمت ورسائله ، ومن خلال اقواله وتصرفاته في السجن ، انه استطاع ، بقوة ارادة خارقة ، أن يرتفع على الشدائد ويتغلب عليها ، وأن يفهم دوافعها ويكافح ضدها ، وأن يحتج على الظلم ، بالف شكل للاحتجاج ، وأن يتجنب اليأس ، بالف شكل للتجنب ، وأن يصوغ مفهوما « للسجن » ، تمتزج فيه كبرياء الصبر بكبرياء المقاومة ، وأن يجعل من مفهومه هذا تطبيقا عمليا خلاقا لحياته .

لقد كسر ، ذات يوم ، قلمه الوحيد الذي يكتب به ، وبدلا من التشاؤم ، عثر على نقطة التفاؤل العجيبة في هذا الحدث الصغير ، ولكن الكبير بالنسبة اليه . استنتج انه لن يستطيع الحصول على قلم حبر جديد الا بعد خروجه من السجن ، ولانه لا يمكن ان يبقى

---

(١) أكد لي كثير من أصدقاء ناظم حكمت الاتراك ان بيرايبه هي منور ، وان ناظم لم يتزوج غيرها في تركيا . ولم أجد في رسائله الى صديقه في السجن كمال طاهر ، أيما ذكر لزوجة أخرى . وقد ورد اسم منور في احدى رسائل ناظم قبيل اضرابه عن الطعام وخروجه من السجن ، اذ يقول انها قامت بجمع التواقيع على عريضة تطالب باطلاق سراحه ، وربما كانت منور أخرى غير زوجته أم محمد (ح.م.) .

(٢) كذلك أتى ناظم على ذكر هذا الخلاف مع بيرايبه في رسائله الاخيرة الى كمال طاهر ، لكنه لم يذكر ابدا انه أحب امرأة أخرى ، أو اعتزم الزواج بها (ح. م.) .

بدون فلم ، فان الافراج عنه بات قريبا .

وهم ! لكنه وهم في حساب الحلم ، والحلم حين يكون قابلا للتحقق ، يصبح مادة أمل وعمل ، ومشاعر فرحة خصبة تعطي العافية للنفس البشرية في كفاحها ضد اليأس والتصوح والذبول .

اننا سنمضي الآن في رحلة غير قصيرة مع ناظم ، وسيكون انطلاقنا معه من سجن بروصه ، هذا الذي يصفه لنا في أول رسائله الى كمال طاهر ، صديقه في سجن تشانكيري :

عزيزي كمال (1) !

« ها أنا في سجن بروصه . النوافذ والجدران والممرات المحصبة هي نفسها دائما . لم تشخ ولم تتبدل . حتى انني التقيت بعض الموقوفين الذين ما يزالون هنا . لقد وجدوا انني شخت ، ووجدت انهم شاخوا كذلك .

لكم وصفت لك هذا السجن : بناء على شكل طائرة ، وغرفتي في الطابق الثالث ، الى اليسار ، في آخر نقطة منه . انها غرفة صغيرة ، بل أصغر جدا من غرفتي في سجن تشانكيري ، نقيم فيها نحن الاثنين ، أنا وزميل يدعى كمال . نعم ، كمال مثلك . وليس اسمه الذي هو نفس اسمك فقط ، بل ان له أشياء كثيرة تذكرني بشبابك : حبه للشعر ، حماسته الموارة. انه محكوم بالسجن بموجب المادة ٩٤ . وقد لا يشبهك في شيء سوى الاسم ، ومن الجائز انني أنا الذي احتاج للبرهنة على مثل هذا التشابه الموجود بينكما ، ما أهمية ذلك . انني راض بزميلي في هذه الزنزانة ، ونستطيع أن نتكلم عنك، كما لو انني ، اتكلم معك . وقد بلغ هذا التماثل ذروته أمس مساء ، فخيل اليّ ان الباب سيفتح وانك ستدخل منه » .

يتحدث ناظم حكمت بعد ذلك عن معارفه في سجن بروصه ، ويختم رسالته قائلا : « اعتن بنفسك يا كمال ، لا تعرضها للبرد ، ولا تدع الزكام يصيبك ويهزل جسمك ، فقد فارقتك وانت كالبلوطة ، وآمل أن القاك كالبلوطة واسمن قليلا .

« تحيات مفعمة حنينا الى كل الذين يسالونك عن أخباري ، والى الذين يفكرون بي ، اقبلك ، أخي » .

ان هذا الانتقال ، من تشانكيري الى بروصه ، قد سعى اليه ناظم بالحاح لوجود حمامات معدنية في المدينة ، يستطيع أن يتعالج فيها من « العرق الانسر » ، حين تتوفر لديه النقود ، وما اندرها .. واذ يتم النقل يروح ناظم يتوجع لفراق كمال ، زميله في السجن وفي القضية الادبية والسياسية على السواء ، الذي كان يدعوه ولدي : « جاءت بيراييه وعادت . لم نصنع شيئا سوى الكلام عنك . لقد شعرنا اننا عجائز لان لنا ولدا عمره اكثر من ثلاثين عاما . لكننا شعرنا ايضا اننا شباب جدا ، لان لنا ثقة كبيرة فيه » .. « مضحك يا كمال ! انني أسال نفسي غالبا ، لماذا لست عجوزا جدا ، ولماذا لم تكن انت ابني الاشد ذكاء ، ابني العظيم ؟ » .

«كمال ! أجد ما يقلقني بسبب الرطوبة في غرفتك ، فاذا كان من غير الممكن ان تاتي الى هنا بسرعة ، فاستخدم « منقل » نار ، ولكن احذر خطر الاختناق بغاز الفحم » .

« كمال ! كنت سعيدا جدا حين علمت بانك وضعت في زنزانة جديدة ، لكنني حزنت لانهم أخذوا منك الراديو . هنا توجد اذاعة داخلية في عدد كبير من الغرف ، ولدينا أيضا محطة اذاعة مشتركة في البهو . تحياتي الى رفاقك في الزنزانة ، واذا كانوا يحملون لك التقدير والمودة ، فسيسعدون سجينا آخر على بعد مئات الكيلومترات، لا يعرفون اسمه » .

« سيكون رائعا يا كمال أن أعيش أنفا لانف مع بيراييه ومعك ، ومع زميلي طالب الجامعة القوزاقي (الذي حدثتك عنه) في هذه الغرفة من غرف سجن بروصه . معكم فقط وليس مع الآخرين . أنا مسرور من رشيد كمالي ، وكل يوم أزداد سرورا به . وليس ذلك لانه لا يرتكب حماقات ، فهو يرتكبها بكثرة ، بل لان الحياة معه في غرفة واحدة لا تزعجني أبدا . أعتقد انني أستطيع أن أعيش معه عاما أو عامين ، حسب الحاجة ـ وليجف لساني ـ في هدوء تام » .

ان رشيد كمالي ، الذي سيصبح ، بفضل مساعدة وتشجيع ناظم حكمت ، الكاتب أورخان كمال والذي كان يعيش معه في زنزانة واحدة ، قد كتب كتابا عن حياة الشاعر في سجن بروصه ، عنوانه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (1) وقد وصف في هذا الكتاب كيف وصل ناظم الى سجن بروصه :

« كان ذلك في شتاء ١٩٤٠ ، كنت أعمل في تنظيم « دفتر السوابق » لقلم السجن . وذات صباح ، وفيما كان الكاتب يقلب الاوراق الواردة حديثا قال : « أوه .. لدي خبر مفرح » .

نظرت اليه بحيرة .

ـ أستاذك قادم .

ذهلت لانه لم يكن لي أستاذ .

قال : أتخدعني ؟

قلت : لا ، ولكن ليس لي أستاذ .

ـ يا حبيبي ... انه ناظم حكمت .. أليس أستاذك ؟

لم أصدق . قدم اليّ مذكرة كانت في يده . تناولتها : حقا انه في الطريق الينا . انه يشكو من « العرق الانسر » ، ويرغب بالمعالجة في الحمامات المعدنية » .

« كان النهار رصاصيا ، والثلج يغطي أوراق الزنبق الخضر في حديقة السجن ، واليأس من خروجي من السجن ، لطول مدة حكمي ، يزيد من ضيقي ، غير أنه سرعان ما تغيرت مشاعري هذه ، وانجلت كالغيوم عند شعاع الشمس .

« لم تكن بيننا أية معرفة أو صداقة أو مجرد تحية ، كما لم يكن ثمة احتمال أن نغدو « رفاقا » في يوم من الايام . كنت ، مثل الجميع ، أفتقد غيابه ، ومثلهم لا ادري السبب بالضبط . ربما لانني أخاف عليه ، أو لان معرفتي به بسيطة ، ومهما يكن فقد كنت أحبه وأحب فنه العظيم » .

كانت معرفة رشيد كمالي بناظم سماعا . الاذن تعشق قبل العين أحيانا . القلب كذلك . ان الذين يهبون حياتهم للناس ، نضالا وأدبا وفنا ، يصيرون في الاحياء الى الناس ، معقد رجاء ، ومسحة عزاء في الشدة . والسجناء في تركيا ، الذين التقوا ناظم في سجن التوقيف في استانبول ، أو عايشوه في السجون المختلفة ، أو سمعوا به من السجناء الآخرين ، أو قرأوا شعره المتداول بينهم كالخبز الابيض ، هؤلاء ، جميعا ، كانوا ينطوون على رجاء : ان يروه

---

(١) كمال طاهر ، المعتقل كناظم حكمت ، وللاسباب السياسية ذاتها ، الذي سيفدو ، بفضل تشجيع ناظم له ، من أبرز الروائيين الاتراك . انظر كتاب « من الامل الى ما يجعل الانسان يبكي غضبا » ، الطبعة الفرنسية ، ترجمة منور انداش عن التركية .. وقد عربنا مقتطفات من رسائل ناظم عن هذه الطبعة ، الدكتورة نجاح العطار وانا . (ح. م.) .

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية الاستاذ جوزيف ناشف وراجعه الاستاذ علي الطنطاوي ونشرته مجلة « الموقف الادبي » ـ كانون الثاني ١٩٧٥ ـ وقد اعتمدت عليه في بعض المقاطع من هذا القسم ، وأغتنم هذه المناسبة لاشكر الزميلين وأنوه بجهدهما .

مرة ، وان يشدوا على يديه ، ويقدموا له خدمة صغيرة ، او يقولوا كلمة ، هي في مقابل عطائه الكبير ، تحية قلب الى قلب .

نجاتي ، في سجن بروصه ، كان من هؤلاء . لقد تعرف الى ناظم في سجن التوقيف في استانبول . أحبه جداً ، وحدث السجناء في بروصه عنه . كان يكتب الشعر أيضا مثل كمالي ، ومثل عزت ، زميلهم الثالث ، وكان قدوم ناظم بالنسبة اليهم شيئا كبيرا ، لانهم سيعرفون رأيه في ما يكتبون من شعر ، وسيكونون على مقربة من انسان قال نجاتي عنه : « ان له سمات الرجال العظام المشهورين » .

الفرحة تضج في صدر كمالي . انه يمتلك خبرا أكبر منه ، أكبر من وجوده وكيانه ، ولكي يتخفف ويهدأ ، يترك عمله ، ويركض بين طوابق السجن ، مندفعا بقوة غير عادية .

« قابلت نجاتي عند غرفة « المواجهة » قرب الشبك الحديدي في الطابق الارضي ، حيث كان يعمل في ادارة تنظيفات السجن . قلت له : « هل تعلم ان ناظم حكمت قادم الى هنا ؟ » . لم يصدق . اقسمت له . صفق مثل طفل صغير ، وانطلق يصيح : « يعيش » . وقال : « يجب أن أطلب من عزت ألا يضايقه بالذهاب اليه ، وقراءة شعره أمامه ، فهو يكره أن يزعجه أحد . لا يجوز أن يسأله عن كل شاردة وواردة .. وربما كان من الافضل ألا نخبر عزت ، خشية أن يقول ناظم « آي » ويحمل أمتعته وينتقل الى زنزانة أخرى » .

غير ان كمالي يعجز عن كتمان السر . يركض ويخبر عزت ، ويخبر السيد أمين ، وبعد قليل كان خبر وصول ناظم قد سرى بين جميع السجناء . وقال نجاتي : « يا رجل ! لا يمكن للعدس أن يبتل في فمك ! » . وشرعا يتحدثان عن ناظم :

ـ هل استمعت اليه وهو يقرأ الشعر ؟

ـ استمعت .. عندما يقرأ الشعر يحس الانسان بانفعالات تتماوج في أعماقه .. واذا ما أخذ طفلا يبكي بين ذراعيه سكت الطفل فورا .

وراح نجاتي يقص ، كعادته ، الحكايات عن ناظم .. يخترع بعضها ، وينقل بعضها الآخر سماعا ، ويجد في ذلك فخرا وزهوا على الآخرين .

وبعد أسابيع ، فيما الثلج يتساقط ، والدنيا رصاصية ، يركض نجاتي الى كمال وهو يلهث :

ـ لقد أحضروا ناظم حكمت قبل قليل ..

يقول كمال : « كنت في رئاسة القلم ، بجانب دفتر السوابق ، فسقط القلم من يدي ، وعاد اليّ نجاتي يقول :

ـ لقد أدخلوه عند السيد المدير .. حدثنا عنه طويلا .. تعال فهو الآن على وشك الخروج .

« أمسكني من يدي وخرجنا . كنت منفعلا الى درجة انني أحسست بالسطح يدور فوق رأسي . وفي زاويه من القاعة البيتونية ، العائدة لادارة السجن ، لفت نظري الى الاغراض الموجودة : فماش برتقالي مصنوع من الشعر حزم به فراشه ، وحقيبتان عتيقتان وسلة . انه انسان مثلنا ، يفكر بغير الشعر أيضا .. لكنه ، على أية حال ، فوق مستوى البشر ـ قلت في نفسي ـ انه نابغة .. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرى سوى نابغة واحد ، كلما اتجهت أفكاري الى النابغين ..

« كان على وشك الخروج من غرفة المدير و .. (على رأسه قبعة سوداء) كلا (لم تكن قبعة ، بل هو خروف ضخم مشقوق البطن) أو ربما (يبدو جالسا بكبرياء الى جانب دفة السفينة كما ذلك البحار في قصيدة بحر خزر) .. انه انسان تركي على شكل بوذا ، يقف بعظمة الى جانب دفة السفينة » .

« صرّ باب غرفة المدير وانفتح . حبست أنفاسي . جحظت عيناي ، وحدقنا الى امام ، كأنني انتظر ان ارى هيكلا عظيما من المرمر . لحظة .. وكنا وجها لوجه .. ثم التقت أعيننا . كان يضحك برقة ، ضحكة تذكرك ، بغير شك ، بطفل نظيف ، ناضج ، صديق حقيقي .

« كان يفكر بالشيء الذي عليه ان يفعله ، ثم بدأ يبحث عن وجه يعرفه ، وأخيرا لمح نجاتي ، وعندما همّ بالتوجه اليه اسرع نجاتي وعرفني به . تصافحنا بحرارة ، وبدأت عيناه التركيتان تتنقلان بين الموجودين في القاعة ، وكانوا كثيرين .. بعضهم تعرف عليه في سجون أخرى ، وبعضهم سمع باسمه فقط ، وكان ناظم ، ما ان يلمح شخصا يعرفه ، حتى يسرع اليه ويعانقه ، كوالد وولد طال فراقهما . « آه يا أخي العزيز .. انت ! » كان يقول ، « وانت أيضا ! » ويسأل كل واحد عن قضيته ، وأحواله وبيته ، وعما اذا كان يتلقى مساعدات ، وعن استئنافه أو تمييزه ، وكان يبدو كأنه يتابع ، عن بعد ، قضايا هؤلاء الرجال .

ويتجه الى « رمزي المجنون » ، النحيل ، الحافي ، المرتجف من البرد ، ويسأله :

ـ .. اذن حكموك ثلاثين سنة ؟ ولم كل ذلك ؟ هل قتلت أحدا ؟ هل يقتل المرء انسانا آخر في السجن يا رمزي ؟ ماذا ؟ حرّضوك ؟ اذن قتلته نتيجة التحريض ؟ أهذا معقول يا رمزي ؟ أيليق بك يا ولدي ؟ هل يقتل المرء من أجل سبع ليرات ؟ نعم .. انه الجهل ، لكنك جددت الثلاثين سنة مرة أخرى .. هيا ، هيا .. لا يجوز مثل هذا ، أنت انسان طبعاً ، فلماذا تجور على نفسك ؟

ويتجه نحو شخص آخر ، يسأله عن صحته وعن ماكينات الجوارب والخيوط ، ويأتي دور السيد أمين ..

ـ آه يا سيدي ، يا أميني العزيز ، يا أستاذي ، يا عزيز روحي .

ويقول حارس قروي ، متوجها الى زميله :

ـ يا له من رجل حي !

وفي تلك اللحظة يأخذ رئيس الحرس والحراس بتفتيش أغراضه ، وبعد الانتهاء من تفتيش احدى الحقيبتين ، يسحبها ناظم ويفتحها . كانت فيها أوراق ، ودفاتر ، وأقلام ، وفراش ، ودهان زيتي ومائي ورسوم ، أخذ يرينا اياها ويشرحها لنا ، ثم يرينا صورا ويقول :

ـ هذا هو كاتبنا كمال طاهر .. وسيكون في المستقبل من أقوى كتاب الرواية الاتراك .. وهذا محمد العصري ، كان مصورا في سجن تشانكيري ، وهذا محمد كلجي بطل احدى قصص كمال طاهر الكبيرة . ويتخذ وجهه طابع الجدية ويقول :

ـ ان شعبنا التركي ذكي ، مدهش .

« كانوا قد جهزوا له زنزانة انفرادية في الطابق الثالث ، فحملنا بعض أغراضه وتركناه بعد رجاء يحمل الاغراض الاخرى ويسير خلفنا . صعدنا سلالم ، دخلنا من أبواب حديدية متشابكة . مررنا بدهاليز مظلمة ذات رائحة كريهة ، ورأينا السجناء مجتمعين ومنفردين ، ثم بلغنا الزنزانة فوضعنا الاغراض فيها .. » .

في هذه الزنزانة سيعيش ناظم حكمت سنوات طوالا من عمره . ان هذا الانسان المحبوب حتى من أعدائه ، كان في وسع أي سجين ان يتحدث معه بسهولة وراحة . وقد شعر كمالي بالغربة معه ، لاول وهلة ، لانه كان يسيطر عليه مثل هذا الشعور أمام المشهورين ، غير انه ، بعد مضي ساعتين ، كان صديقه ، وبعد فترة طلب ناظم من ادارة السجن ان ينقلوا كمالي الى زنزانته ففعلوا ، وراح هو ، بعد

ذلك ، يرتب أوقاته ، بما اشتهر عنه من دقة وتنظيم ، متابعا علــى هذا النحو كفاحه السياسي والادبي من قلب السجن .

« كمال !

« زميلي في الزنزانة فتى حسن النشأة ، يحب الادب والشعر ، ونحن نتفاهم جيداً ، وهو يهديك صداقته .

« عليّ ان اخبرك كيف تنقضي أيامي حاليا . في الساعـة الثامنة صباحا تفتح الابواب . اذهب الى التواليت فاغتسل ، وأتناول الافطار وأتنزه حتى التاسعة ، في التاسعة بعض القراءة ، وغالبـا قراءة لتحسين فرنسيتي مثلك . في العاشرة أنصرف الى الرسم ، والى أن يهبط الظلام ، أي الى حوالي الخامسة ، أرسم . تغلـق الابواب في الثامنة ، وحتى ساعة اغلاقها أدردش مع آمين والآخرين . وبما انه ليس لديّ ما أقرأه ، أنام في التاسعة . هاك كيف تمضـي حياتي في السجن . انني لا أكتب الشعر ، ولا أدري لماذا ، لكنـي احسّ أن امتلاء يحدث في داخلي ، وعندما أفرغه قد اكتب أشيـاء جيـدة .

لا استطيع أن اكتب دائما الـى نوري طاهر (١) . سأكتب له غدا ، وأطلب منه أن يبعث اليّ بصورته النصفية ، على الا تكـون صغيرة جدا ، وسأرسم له ، بألوان معتنى بها ، صورة جميلة .

صدقني يا كمال انني مستعد أن أدفع كثيرا لاكتب رسائل مثل رسائلك . لو كنت قادرا ، بدل الرسـم ، أن أكتب رسـائل جميلة اليك !

غالبا ما اسفت لانه ليس لي اخ . الآن لديّ اخوان : نـوري طاهر وأنت . لا تستطيع أن تتصور ، أنت الذي لك شقيقان ، الـى أي حد أنا سعيد بالتفكير بك من بعيد ، كأخ أكبر ، غير انه يمكـن ان تاسف انت أيضا لانه ليس لك اخت .

لشد ما ارغب أن ارى ثانية سجن تشانكيري ، والموقوفيــن هناك ، وغرفتنا ، وكل تلك الاشياء . ان بي حنينا الى ذلك . حانوت « مودرن » الصغير لبيكير الخياط ، وورشة النجـارة ، والفحام الصغير ، كانت تلك أوقاتا سعيدة .

حالتي ليست سيئة هنا . غير ان هذا لا يكفي . المهم هـم الناس ، الانسان .

بيرايبه تبعث اليك بكل صداقتها . لقد سلموني رسالتك يوم الاثنين ، حين كانت هنا ، وقرأناها معـا ، فاندفعت الدموع الى عينيها ، ووبختني لانني قبلت بالمجيء الى بروصه وتركتك هنـاك . غير انها تعزت حين قرأنا المقطع الذي تحكي فيه عن مدى ارتيـاحك الى المدير الجديد ، وقالت لي : « كمال ! انه بمثابة ابن عظيم . انه مثل بكري محمد ، وانا سعيدة حين أفكر ان لي ابنا عظيما بهـذا الشكل ، من ناحية أخرى فان حزنا ناعما ينتابني حين أرى الـى أي حد شخنا ، انت وانا » .

في اليوم التالي تسافر بيرايبه تاركة ناظم في زنزانتـه مـع رشيد كمالي : تدعه هناك ، في سجن بروصه ، وراء ستة أبواب :
« آه يا أخي .. ما هذا ؟ ابواب وراء أبواب ، واقفال على اقفـال ، بالله كم بابا يغلقون وراءنا ؟ » .

ويصمت كمالي ! هو يعرف ، أو سيعرف ، أن لدى ناظم مادة دائمة للاحتجاج ، ولكن ليس لديه مادة لليأس .

« سيرى أحدنا الآخر يا أصدقائي ، سيرى احـدنا الآخر . سنضحك جميعا للشمس ، ونتعارك جميعا أيضا .

« هناك كما تذكرت في هذه اللحظة ، اغنية لموريس شيفالييه :
وداعا ، لا ، سنرى بعضنا ثانية ،
وداعا ، لا ، الى اللقاء .

« كمال !

« يتبدى مزاجك رضيا دائما عندما تحدثني عن اخبار عملك . اندفع الدمع الى عينيّ وأحسست كم أنا فخور بك . اني مقتنع بانك ستغدو يوما كاتبا من الطبقة الرفيعة ، وهذا الاقتناع يقوي ايماني ، يعزز ايماني بجمال العالم . انه لجميل ان نعيش ، وسيظل جميلا » .

ان هذا النشيد العلوي لجمال العالم ، سيظل ترنيمة صلاة يومية للشاعر الذي يعشق الحياة ، حتى وهي تبدي له أفظع جوانبها قباحة . ما همّ . انه من نافذة سجنه يضحك للشمس ، ويتأمـل على جناح خاطر طائر ، كل الدنى التي يكسوها ارجوان الزنابق ، في خضرة الربيع ، وفي حقول الصيف ، حيث الثمار الذهبية قناديل على الاغصان ، وفي نتاج الادباء الاتراك ، الذين يعززون ايمانـه بالبهاء الازلي لوجود يعطي نفسه لمن يعرف أن يأخذه ، وكذلك فـي الوجوه الطيبة للسجناء السياسيين الذين يتوجه اليهم برسـائله ، طافحة بشوق حقيقي ، ونابضة بصـوت مجلجل : أن اصمدوا ، وابدعوا ، واغزلوا من أحلام المستقبل قمصان عرس لليوم الكبير الآتي .

وكان هؤلاء السجناء يبررون ثقة ناظم بهم . كانت رسـائله نداءات معركة يخوضونها مع أحرار العالم بجسارة مدهشة وفـرح عظيم ، وكانت ، كذلك ، نجاوى قلب يختزل قلوبا عامرة بالمحبـة والدفء ، وتوفها ، كان الاهتمام بأقـل شؤونهم اثارة للاهتمام ، يعطيهم الشعور بأن لهم أخا أكبر ، أعظم ، احسن من كـل الاخوة ، لانه رفيق دربهم وزميل قضيتهم .

يقول عابدين دينو ، في مقدمته لكتاب « من الامل الـى ما يجعل الانسان يبكي غضبا » :

« من المؤكد ان ما هو مكتوب ببساطة (في هذه الرسائل) مثير جدا ، أو تكتشف فيه شاعرا كبيرا متوجها باستمرار شطر الآخر ، يهتم به يوميا ، يهتم بالحاح بكل ما يتعلق به ، بكل ما يحتاج اليـه من دراهم ، وكذلك بأحذيته وبنطاله المثقوب ، ويعمل كل ما بوسعه ليسد هذا النقص .

« وتكشف رسائل ناظم عن وجه هام من تصوره للشعر ، فالفن عنده مغامرة جماعية ، اذ الشاعر ، كما الكرّام الذي يعنى بكرمته ، مهتم بالحصاد المقبل ، وبما سيأتي من روائيين وشعراء ورسامين من الشباب . انه يساعدهم مباشرة ، ويكوّنهم ، وعندما ينقدهم ، يهلل، يعرف العالم بالذين سيصبحون أفضل كتاب تركيا .

« كان يرقص فرحا لاية بادرة تنم عن قريحة ، شانـه شان الساحر الذي يكتشف كنزا مخبوءا في الارض . ويحلف انه لا يوجد شيء مماثل لهذا في ذاكرة انسان !

« لقد اعتبر بعضهم ظواهر التساهل معهم على انها حق ابدي لهم ، في حين ان البعض الآخر ، وكانوا اكثر وعيا ، حاولوا بالعمل المفيد ألا يكذبوا تفاؤل الشاعر . فكمال طاهر ، وشبيهـه في الاسم اورخان كمال ، اللذان نستشعر وجودهما في الرسائل ، اثنان مـن احسن الكتاب الذين كوّنهم ناظم . ونكتشف كـذلك وجـود المصور الفلاح بالابان الذي علمه الرسم ، وهو واحد من المشهورين فـي تركيا ، ومن الذين عاصرهم ناظم وكانوا معه في السجن .

« ومهما يكن من أمر فاني ما ازال أرتعش لذكرى تلك الساعـات والايام والسنوات التي اضاعها ناظم في سبيلنا ، عوضا عن أن يعمل فيها من اجل قصائده .

(١) نوري طاهر شقيق كمال طاهر ، ومحكوم لنفس الاسباب فـي سجن سينوب .

« كان كل مرة يقسم بان ما قاله كاف ، وعبثا كان يقسم ، وكل مرة كان معلمنا الاول يصوغ بتواضع ، ومن اجل المتخلفين من امثالي ، حقائق أولية ، وهو يتظاهر بانه يكتشفها معنا، اذ يلخص، من أجلنا ، الانتقادات الماركسية المتعلقة بالفن بين الاعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٥٠ ، ويشرح لنا الكثير من المسائل الفلسفية والفنية المتعلقة بالشعر والقصة والرواية » .

ويقول اورخان كمال (رشيد كمالي) في كتابه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (١) في السجن :

« لم يمض على قدوم ناظم الى سجن بروصه اكثر من ساعتين، وخلال هاتين الساعتين أصبحنا أصدقاء ، وبدأت أحس بانني قد تعرفت على جميع الاشخاص الغريبين الى قلبه : امه ، زوجته ، ابنه ، اخته ، ومجموعة من أصدقائه . كيف حدث هذا ؟ لا أدري ! ولمعرفة ذلك سألني : « ما دراستك ؟ » . أصبحت باردا كالثلج ، خجلت خجلا شديدا ، فهون عليّ قائلا : « يا رجل ، ما دمت لا ترغب أن تكون موظفا فما حاجتك الى الدراسة ؟ » . ثم سألني : « أتعرف لغة أجنبية ؟ » . أجبت : « مجرد معرفة بسيطة بالفرنسية » . قال : « أترغب في اتقانها ؟ » . وأجبت : « طبعا ! » . فشرع يحدثني عن الحرب العالمية الثانية ، وعن الاحتلال الالماني ، وعن الفلسفة ! ولما عرف أنني قرأت كتبا كثيرة سألني عن أشعاري ، وطلب مني احضارها ، فأحضرتها ، وشرعت أقرأ ، لكنه علق قائلا : « يكفي .. ركيك ، قصيدة رديئة » . وقال : « كل هذا الكلام ، يا أخي ، ثرثرة، وعفوا لتعبيري ، ما الداعي لكل هذا ؟ لماذا تكتب عن أشياء لا تنبع من صميمك ؟ » . بدأ الدم ينزل من رأسي الى قدميّ ، وأشعاري تتهاوى على الارض ، وأنشأ هو يشرح كل شيء بدقة . تكلم على « الواقعية » والواقعية الجديدة ، كان حديثا طويلا مسهبا ، لم أفهم منه شيئا ، كنت أحسّ بعالم كبير بنهار في داخلي ، عالم مبني على الوهم والكذب ، لم أكن مؤمنا به . وبعد أن قرأ عليّ أشعارا من دفتره الاسود الصغير ، وسألني رأيي فيها ، وغضب لانني مدحتها كثيرا ، قال : « لديك قابلية جيدة للصنعة ، وهذا واضح . لقد كنت خشنا في تقويمي لشعرك ، ويجب أن تعذرني لذلك . أنا لا أمزح في أمور الصنعة .. وانطلاقا من هذه النظرة فانني أؤكد لك انك تملك خامة طيبة للشعر » . وسحب نفسا عميقا من غليونه وأضاف : « أريد أن أعمل معك عن قرب .. انني أريد أن أشذب ما تكتب . أريد ان أعلمك الفرنسية اولا ، ثم نخطط للدروس الاخرى، ألديك استعداد لذلك ؟ فوعدته ، وتصافحنا ، وعاد يضغط على التبغ في غليونه بنشوة .

« كنت أدرس ثماني ساعات أو سبعا كل يوم ، وأكتب أشعارا ، لكني ما كنت أجرؤ على اطلاعه عليها . كانت أشعاره سلسلة تزخر بالمعاني الكبيرة ، بايجاز شديد ، بينما أشعاري تتخبط في متاهات، مليئة بالحسك من البداية حتى النهاية . وبعد اشهر أطلعته على أولى قصائدي وكانت بعنوان « قصة بيروت » ، فأصغى اليها بانتباه ، وطلب مني أن أقرأها ثانية ، ومن حين لآخر كان يقول : احذف هذه الكلمة ، وهذه .. أو يطلب مني تغيير ترتيب الابيات ، وبعد تهذيب أشعاري على هذه الصورة ، نظرت اليها بحيرة ، اذ كانت سابقا محشوة بالخشونة والتفاهات ، فأصبحت أشعارا تذكر باشعاره » .

ان هذه الصرامة في مسالة الصنعة كما كان يقول ، تنسحب على أشعار الآخرين بمقدار ما تنسحب على أشعاره هو . كان يريد من قرائه ان ينقدوه ، أن يبينوا له موضع الضعف والرداءة في شعره ، وكثيرا ما استجاب للنقد الصحيح ، فغير وبدل بالكلمات في قصائده، وكثيرا ما عتب على كمال طاهر ، لانه تردد في نقد شعره بجرأة .

---

(١) سبقت الاشارة الى هذا المرجع .

« لقد جرحني أن أعلم انك ترددت طويلا قبل أن تعرّفني برأيك في أشعاري ، منذ متى تعوزك الشجاعة في أن تكتب لي انك وجدتها رديئة ؟ حين تجد شيئا لا يرضيك فلا ينبغي أن يمنعك أيما شيء من أن تجهر برأيك للذين هم أعز الناس لديك . أنت تعلم انني ، أنا نفسي ، لا تأخذني رحمة ـ بقدر ما أستطيع ـ نحو ما أكتبه . الاشفاق على أشعاري سأحسّ به في اليوم الذي أقتنع فيه بانني غير قادر أن أصنع خيرا منها . وهنا ستكون الشفقة التي أحسّ بها ، بسبب من موتي الذاتي كفنان » .

صارم في نقد الشعر ، صارم في أخذ نفسه بأن تصنع خيرا مما صنعت ، عامل دائب في سبيل أن يكون السجن نافعا لشيء ما ، قادر ، رغم ألم الارق ، أن يسيطر على أعصابه ، وأن يعلم الناس محبة كل يوم أفضل ، وكل يوم أجمل ، مكرس أيامه في سبيل تعليم من يتوسم فيهم الموهبة ، كيف يكونون كتابا جديرين بالذين هم في صفهم . لقد صاغ من سنوات السجن الطويلة فلسفة خاصة بالسجن، تقوم على الصمود ، وعدم استهلاك النفس حسرة على ما هو خارجه ، وعلى الثبات في النضال لاجل الوطن ، والقضية ، والناس الذين هم ابناء الوطن وجوهر القضية :

انه لنا ،
هذا الوطن الذي يطاول شاطىء البحر الابيض ،
كراس فرس مقبلة خببا من آسيا القصية .

★

لتتوحد ثغور البلاد فلا تفتح لغاصب أبدا
ولينتف استعباد الانسان للانسان .
هي ذي قضيتنا .
حياة حرة ، وردية ، مثل شجرة ،
رائعة ، جماعية ، مثل غابة ..
تلك هي حسرتنا .

غير ان الحسرة في سبيل حياة كهذه ، لا ينبغي ان تقتلها روح التعجل ، ولا أن تراود النفس ، بسبب قسوة النفي والسجن والنشرد وجميع الآلام والمصاعب ، رغبة في الخلاص الفردي ، ولو عن طريق الموت ، هذا الذي يحمل الراحة والهزيمة معا ، حين نقاربه بملء اختيارنا ، كي نتخلص من آلامنا وشقائنا ونحن نرسف في القيود . ان ناظم يوجه نصائحه الى السجناء ، الى أولئك الذين يذوون مثله في الظلمة والرطوبة ، قائلا لهم : « ان قراع العدو دينا في أعناقكم » وان على السجين ، من أجل ذلك ، ألا يقول : « حبذا لو تأرجحت كراية في طرف حبل » ، بل أن يغرز قدميه في الارض متشبثا بالحياة :

تعلقك بالحياة والوطن والانسان يعني :
أن تشنق ،
أو ترقد في غيابة السجن ، عشر أو خمس عشرة سنة .
عليك ألا تقول :
« حبذا لو تأرجحت ، كراية في طرف حبل »
بل أن تغرز قدميك في الارض ، متشبثا بالحياة .
قد كان لك عيش آخر في الدنيا ،
لولا أن قراع العدو دين في عنقك ،
وانك تستطيع أن تظل وحيدا ، على جنبك ،
مثل حجر في قاع بئر ،
بينما جنبك الآخر يشارك الحياة ،
بزحامها وأحداثها ،
الحياة التي تقشعر لها الابدان في السجن ،
وان لم تحرك ، خارجه ، ورقة شجر على الارض ،

منذ أربعين يوما .
ان انتظارك الرسائل في السجن ،
وترديد المواويل ،
وفتح عينيك والحملقة في السقف ، فوقك ،
وتسمر ناظريك عليه ،
شيء حلو ولكنه خطر .
انظر الى وجهك بين الحلاقة والاخرى ،
انس عمرك .
صن نفسك من القمل ،
ومن أمسيات الخريف أيضا .
لا تنس أكل الخبز حتى آخر لقمة ،
والضحكة العريضة ملء الفم ،
ثم من يدري ،
فقد تتخلى المرأة التي احببتها عنك .
لا تقل هذا أمر تافه .
انه يهصر المقيم في السجن .
فيصبح كأنه غصن أخضر مقطوع .
التفكير بالحديقة والورد سيىء في السجن ،
أما التفكير بالجبال والامواج فشيء حسن .
أوصيك بالقراءة والكتابة دون توقف ،
وبالحياكة ،
وصنع المرايا .
ان قضاء السنوات العشر ،
أو الخمس عشرة ،
او ما هو اكثر ،
ليس بالامر المستحيل ،
انها تنقضي ،
شريطة ألا تسودّ الجوهرة ،
التي تحت ثديك الايسر (١)

هذه التفاؤلية العملية ، المبنية على ملاحظات واقعية موضوعية ، تكشف خبرة انسان عرف السجن والنضال كليهما ، فصاغ خبرته في الصمود على شكل نصائح ، قد لا تكون، اذا اتبعت ، العلاج الشافي لازمة السجين ، كل سجين ، غير انها ، بالنسبة لسجين معين ، يعرف ان الزنزانة هي امتداد للباحة أو الشارع في الكفاح اليومي ، جديرة بأن تلجم في ذاته نفاد الصبر ، والقلق ، والشكوى، وكل ما يجعل البعد في النفس الصمودي قصيرا ، ونحمله ، عن طريق الممارسة والاقتناع ، على مزاولة عمل مفيد ، من أي نوع كان ، لكي لا يستشعر الفراغ القاتل ، الذي يحرك احاسيس الضيق والملل والسام ، ويدفع الى الشكوى والنواح ، فيخلق لدى السجين ازمة نفسية تزيد من عذابه بغير طائل .

العمل : القراءة ، الكتابة ، الحياكة ، النجارة وغيرها ، كل ما يجعل الانسان نافعا ، وكل ما يملأ الفراغ الناهض في أعصابه كمقرض ، هو شيء حسن بالنسبة للسجين ، وربما كانت المشاغل التي تقام في السجون خير حل لمشكلة الوقت الذي يتمطى ويطول مع الفراغ ، ويبهظ المرء الى درجة فقدان الشعور بالراحة . ولقد اختبر ناظم كل ذلك ، فاوصى ، عن تجربة ، بعدم التحديق في السقف وعدّ الايام الباقية ، وبعدم التفكير بالبيت والحديقة أو انتظار الرسائل ، لان تطلعا من هذا النوع يضني صاحبه ، ويجعله يعيش ازدواجية حياة ، ينمو ويتضخم ويتلألأ جانبها الخارجي على حساب ضمور وقتامة الجانب الداخلي ، فيزداد السجن في عيني الراقد فيه سوادا على سواد .

ليس معنى هذا أن نعزل أنفسنا ، ونحن في غيابة السجن ، عن كل ما هو خارجه ، وأن نقبع بغير تطلع ولا رجاء ، والا نسوح بعواطفنا فيما وراء الاسلاك الشائكة ، ونقيم سورا من حولنا فلا ندعو الى غرفنا ، في رؤى اليقظة ، أولئك الذين احببناهم ، والذين هم في صفنا ، والذين يشكلون المصدر لكل الهاماتنا . ان فعلا كهذا يقطع صلتنا بمن هم أساس في قضيتنا وصمودنا ، هؤلاء الذين هم « في عدد أسماك البحر ونجوم السماء » والذين تعجز فضيلة السجن عن أن تمسك روحنا أن ترفرف مع أرواحهم ، بل المقصود ، من الاستغراق في العمل ، والاقبال على الحياة ، وصيانة النفس من القمل والصدأ ، أن نجد سبيلا الى التآلف مع حياة السجن، ونعتبرها حياتنا لفترة طويلة ، ونتقبلها ونحبها على هذا الاساس ، ونحفظ هذا الخافق تحت الثدي الايسر أن ينقلب حجرا يثقل الصدر ، بدل أن ينتفض ليضخ الدم حارا في عروقنا .

الوثوق ، امتلاك الوثوب على الاذى ، أكل الخبز حتى آخر لقمة ، والضحكة العريضة ملء الفم ، ثم العمل ، والعمل ، والعمل ، وتعميق الثقة بان الشمس تشرق كل يوم ، وان الغيم سينجلي ، ومن الايام السود الى الايام البيض ، سيحمل الناس الناس ، في موكب الآتي الجليل ، كل ذلك هو العدة التي تساعدنا على غزل الفجر خيوط ضياء للمستقبل .

لا للحزن ، لا للعزلة ، للضجر ، وللخوف من الوحدة . لا للجلوس تحت أقدام جدار ، والكف على الخد ، والفكر مبلبل ، ورصاصية الطقس مناحة في النفس . لا ، أيضا ، لكل ستارة تحجب عنا رؤية الآفاق المترامية وراء الجدران ، ولكل صمت مقبري يحول بيننا وبين أن نسمع زقزقة العصافير ، وتراتيل الاناشيد ، وأصوات الذين هم صوتنا ، يحملها الاثير الينا ، ليذكرنا اننا لسنا وحدنا في الطريق الرحب الذي تسير فيه امم بكاملها :

لا تبق مسمرا على جدار ،
وذقنك بين راحتيك .
لا تضع ذقنك بين راحتيك .
انهض ،
وانظر ،
الى الليل الجميل في العراء كأنه بحر الجنوب
تصطفق أمواجه على نافذتك ...
تعال ،
اصغ الى النسيم ،
فهو مترع بالاصوات ،
أصوات الارض والماء والنجم
وأصواتنا أيضا .
تعال الى النافذة ،
واصغ الى النسيم
فهو يحمل أصواتنا .
ان أصواتنا عندك ،
معك أيضا .

قولة القائل : « من كانت له آذان للسمع فليسمع » ، تعني ان ثمة آذانا لا تسمع . ليس بها وقر ، ولا هي مسدودة بقطن ، ولكنها لا تستطيع أن تسمع هسيس الورق في غابة ، ولا دبيب النمل في أرض فلاة . انه الانطواء على الذات ، فعل القانطين ، والذين لا رجاء لهم . هؤلاء ، في المناجاة المتبادلة ، لا أحبة لهم . يعجزون عن سماع أصوات البلابل وتسابيح القبرات ، ويتشرنقون في سوداوية تجعل من غرفهم نواويس . هؤلاء موتى . قيامة اليعازر أقرب من قيامتهم ،

(١) هذه القصيدة ، وشذرات من قصائد اخرى قليلة ، من ترجمة الاستاذ ثابت العزاوي .

والذين مثلهم ، اينما وجدوا ، لا يعرفون طلوع الفجر ، ولا يسرون به ، والسجن ، بالنسبة اليهم ، حفرة للعدم ، لا ارتفاع عليها ، فهم زواحف ، ولا اجنحة طيور .

ناظم كان مريضا . انواع الامراض التي تكاثرت عليه اكثر من ان تحصى ، لكنها لم تبلغ ان تلوي من شكيمته . « اشعر بانني بكامل لياقتي كمصارع ، مقاتل ، لاعب كرة قدم ، طيار ، واذا لم اتوقف ساكتب مئة بيت في اليوم ، لكنني اضبط نفسي ، ولشعوري بانني سأعيش حتى ابلغ المئة عام ، ولانني لا ادرك ، هذه الايام ، انني محكوم بالموت كالآخرين تماما ، فانا ارتجف ، أحيانا ، حين يخطر لي انه قد يصيبني شيء خلال ستة أشهر ، قبل أن أتمكن من انجاز هذه القصيدة . كم انا سعيد يا كمال ، اذ يكون لي صديق مثلك، أستطيع ان أكتب اليه كل هذه الاشياء » .

محكوم بالموت ، وينسى انه كذلك . سيعيش مئة عام ، فيا للامل العريض ! خوفه ، فقط ، الا يستطيع اكمال قصيدته ، بسبب حادث مفاجيء ، فهو يكتب مئة بيت في اليوم . ان صاحب القلب المعطوب ، يشعر انه مصارع ، لاعب كرة قدم ، مع انه تجاوز الاربعين ، فكيف تاتت له جراة أن يجهر بكل هذا التحدي في وجه الموت من حوله ؟

ان هذا الذي كان يغني عند التعذيب ، مثل الديسمبريين الذين كانوا يضحكون من القياصرة في المنافي ، كان يعذب جلاديه ، باكثر مما يعذبه جلادوه ، فعل فوتشيك وهو تحت أعواد المشنقة ، والشهادة من بابلو نيرودا ، في مذكراته التي تؤرخ ، ببساطة مذهلة، لحياة مذهلة في قوتها وروعتها :

« كنت على الدوام أزور في موسكو او في الريف ، شاعرا كبيرا هو الشاعر التركي ناظم حكمت ، وهو كاتب خرافي أسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته طويلا .

« لقد اتهم ناظم بانه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية ، فادانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ، ومن بعد ادخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو اكثر من نصف متر ، فشعر اخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد ، عند ذلك فكر : لا بد ان الجلادين يراقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون ان يروني اتداعى ، يريدون أن يروني تعيسا يائسا . فانبعثت قواه في أنفه وبدا يغني ، اولا بصوت خفيض ، ومن بعد بصوت اكثر علوا ، وفي النهاية شرع يغني ملء حنجرته . غنى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، اناشيد شعبه النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه ، وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . وعندما قص عليّ ذلك ، قلت له : « يا اخي ، انك بهذا قد أجبت عنا جميعا ، فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب أن نبدا الغناء » .

« كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قسوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان ناظم يراهم وهم يأتون الى السجن جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبغ بقطعة الخبز التي كانوا يعطونها حصة وحيدة وجراية يتيمة . اخذوا ينظرون الى المرعى في باحة السجن بذهول ، ومن بعد بانتباه وتركيز ، ثم بشراهة ونهم ، وذات يوم التقطوا الحشائش والاعشاب وقربوها من أفواههم وراحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الايدي فيبتلعونها ، الى أن انتهوا الى الرعي بلربعة أرجل كالدواب » (١) .

هكذا كان يعيش الفلاحون الاتراك . ان هذه اللوحة ، بكل ما فيها من قسوة الشقاء الانساني ، لم تكن مبعث اسى بالنسبة لناظم حكمت ، بل مصدر غضب ، يتحول في سلوكه الى نضال ، وفي شعره الى مقاومة . وكان سجنه الطويل ملحمة غير مكتوبة ، لكنها مسموعة جيدا ، تنداح اصداؤها في ارجاء تركيا ، وتحرض الناس ، وبخاصة المثقفين ، على النهوض والكفاح .

حنا مينه

---

(١) مذكرات نيرودا ، ترجمة الدكتور محمود صبيح .

روايات

حنا مينه

الشراع والعاصفة

المصابيح الزرق

الثلج يأتي من النافذة

منشورات دار الآداب